مدرسة الكوفة

ومنهجها في دراسة اللغة والنحو

تأليف

الدكتور مهدي المخزومي

المدرس بكلية الآداب والعلوم ببغداد

الطبعة الثانية

١٣٧٧هـ = ١٩٥٨م

ملتزم الطبع والنشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

تصـــدير

هذا بحث جامعيّ حديث ، فى تاريخ النحو العربيّ القديم ، كتبه الدكتور « مهدى المخزومىّ ، » وقدّمه إلى كلية الآداب بجامعة القاهرة سنة ١٩٥٣ ، ليحصُل به على درجة الدكتوراة ، من قسم اللُّغة العربية .

ولست أعلم بحثا نحويا استوفى مطالب البحث العلميّ الدقيق ، كما تحقّقته فى هذا البحث ، الذى صدر عن كاتبه فى أناة ودقة ، وطول تتبُّع ، واستقامة فكرة ، وأصالة منهج ، ووضوح نتائج ، وغزارة مادّة ، مع صفاء العبارة ، وإشراق الديباجة .

كان صاحب هذا البحث طالبا بكلية آداب القاهرة ، مبعوثا من العراق ، وكان متميزا بين زملائه وأقرانه بهدوء النفس ، وطول التأمُّل ، والرَّغبة الشديدة فى التحصيل ، والعمل الجادّ بتوجيه الأساتذة ، وإرضائهم ببذل أقصى الجُهد فى تحقيق الأغراض العلمية . ولم يزَل على جدّه ومُثابرَته ، حتى أحرز الليسانس ، فعاد إلى وطنه العراق برهة من الزمان . ثم رأيناه يعود إلى القاهرة ثانية ، ويستأنف دراسته العالية بهمة وعزيمة قويتين . وقد أعدّ فى خلال مُقامه بالقاهرة فى هذه المرّة بحثين ، بحثا للماجستير ، فى « الخليل بن أحمد » أستاذ مدرسة النحو البصرية ، بإشراف الأستاذ « إبراهيم مصطفى » ، وبحثا للدكتوراة ، كنت المشرف عليه فيه .

وقد أحسن الدكتور « مهدى المخزومىّ » باهتمامه بتاريخ النحو العربيّ منذ نشأته الأولى ، وبتاريخه فى القرن الثانى الهجرى ، حين جعل « الخليلَ بن أحمد » رأس المدرسة البصرية ، موضوعا لبحثه الأوّل ، وحين جعل « مدرسة الكوفة النحوية » فى القرن الثالث ، موضوع دراسته وبحثه الثانى .

ويمتاز هذا البحث الثانى بمزايا كثيرة ، لابدّ من الإشارة إلى أبرزها وأقواها :
فمنها :

١ — الدقة العلمية الملحوظة ، فى جمع الشواهد الكثيرة ، وتحليلها ، ونقدها ، واستخلاص النتائج منها . لم يفارق صاحبه هذا المنهج لحظة ، ولا غفَل عنه فى قضية من قضايا البحث الكثيرة ، ولم يعتسف الأحكام ، ولم يأت بنتائج ليس لها مقدّمات قوية مقنعة .

٢ — كما يمتاز بأنه أجمع بحث لتاريخ النحو الكوفىّ منذ نشأته وزمان قوّته ، حتى زمن ضعفه واندراس معالمه ، وتغلُّب المذهب البصرىّ عليه تغلُّبا تامًّا ، فى جميع الآفاق العربية ، شرقية ومغربية ، اللهمّ إلا بقية منه كانت لاتزال عالقة بأذهان نُحاة الأندلس ، منذ أُدخِل إليها كتاب الكسائى الصغير ، حمله جودىّ ابن عثمان النَّحوىّ الأندلسىّ ، فى رحلة له إلى المَشرق .
وكلّ راغب الآن فى تتبُّع حركة النحو الكوفىّ منذ نشأته فى القرن الثانى ، إلى نهاية القرن الرابع الهجرىّ أو بعدها بقليل ، لا يجد مرجعا أوفى ، ولا تاريخا أشمل وأدقّ ، من هذا البحث الذى خدَم به الدكتور مهدىّ المخزومىّ اللُّغة العربية أجلّ خدمة ، وأحقها بالذكر .

٣ — ومن أهمّ مزاياه : أنه أنصف مدرسة الكوفة النحوية إنصافا علميا لم يُعْهَد له نظيرٌ من قبل فى كتب تاريخ النحو ، فقد كشف عن طبيعة الدراسة الكوفية ، واعتمادها على الرّواية والنصوص العربية ، قرآنية وشعرية وغيرها ، أكثر من اعتمادها على الأقيسة النظرية المنطقية ، التى عوّل عليها البصريون فى مناهجهم ، وطَرَدوا عليها قواعد النحو طردا عقليا صِرْفا ، لم يبالوا معه بما جاء من النُّصوص مخالفا لهذه الأقيسة العقلية ، المبنية على الأشهر الأغلب فى كلام العرب ، ووصفوه بالشذوذ ، وتأوّلوه على أنحاء شتى من التأويل .
وقد وازن المؤلّف بين آراء الفريقين ، وفضّل رأى الكوفيين فى كثير من مواضع الخلاف والجَدل بين المدرستين .

وقد كان دارسو النحو المتأخّرون كلما مرّوا برأى كوفىّ فى كتب النحو البصرىّ نظروا إليه نظرة احتقار وإهمال ، واطراح وإغفال ؛ لافرق فى ذلك بين الأساتذة المُنتهين ، والطلاب المبتدئين ؛ لايميلون إلا إلى العمل بالمذهب البصرىّ ، لأنه الأشهر عند الدّارسين ، ولأن كتبه ومراجعه الجامعة لأصوله وفروعه ، كثيرة موفورة ، لم تنقطع سلسلتها منذ ألّف سيبويه « الكتاب » ، حتى العصور المتأخرة المتتابعة ، على حين ضاعت كتب الكوفيين ، اللهمّ إلا نقولا منثورة متفرّقة فى كتب النحو البصرىّ ، لا تُعين على تصوُّر المذهب الكوفى تصوُّرًا شاملا ، وإنما تُذكر على سبيل الموازنة بين الآراء فى بعض المسائل ؛ ولم تكن كتب الفرّاء وثعلب من أئمة الكوفيين متداولة معروفة ، وإنما خمد ذكرها ، وانقطعت أسانيدها ، ولم يُنشر ما نُشر منها كمعانى القرآن للفرّاء ، ومجالس ثعلب ، إلا فى هذا العصر الأخير . ولأن أصحاب المذهب البصرىّ أرحب باعا فى تعميم القواعد وطَرْدها ، بناء على قياسهم المعروف ، وذلك موافق لطبيعة المعلّمين والمبتدئين فى تعلُّم العربية ؛ ممن يُؤْثرون السُّهولة ، ولا يتعمّقون فى البحث تعمُّق العلماء المحققين .

وأحسنت وزارة المعارف العراقية الإحسان كله ، حين طبعت هذا البحث لأوّل مرّة على نفقتها ببغداد . التى ينتمى إليها الدكتور المخزومىّ ، والتى يعمل فيها مدرّسا للنحو بكلية الآداب . إلا أن عدد النُّسخ التى طبعتها وزارة المعارف العراقية كان قليلا جدا ، بالنسبة إلى الراغبين فى مطالعة البحوث الجديدة فى العالم العربىّ كله ؛ ولذلك رغب إلىّ مؤلّف البحث ، بعد نفاد نُسخه ، أن يُسْتأنف طبعه بمصر الغنية بمطابعها الكبيرة ؛ وأن يزيد فى عدد النسخ المطبوعة ، حتى يتمكّن الراغبون فى الكتاب من اقتنائه ، والانتفاع به .

وقد قدّمت الكتاب إلى شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده ؛ فتقبّلته أحسن قبول ، واعتمدت طبعه ونشره فى الآفاق العربية ، وأخرجته على هذا المثال المُشرق ، الذى يناسب قدر الكتاب ومؤلّفه .

وقد قمت بتصحيح تجارب الكتاب نيابة عن مؤلّفه ؛ وكان بعض التجارب

يُرسل إلىّ فى مدينة « الرياض » قاعدة « المملكة العربية السعودية » ، حيث نُدبت للتدريس بجامعة الملك سعود ، ولم يكن عندى جميع المراجع التى رجع إليها المؤلِّف فى بحثه ، فكلما عرض لى اشتباه فى بعض الكلمات التى صُحِّفت فى الطبعة الأولى ، اجتهدت فى ردّ بعضها إلى الصواب ، على ماظهر لى ، وتركت بعضها كماجاء فى الطبعة السابقة ؛ على أن ذلك لا يُجاوز موضعين أو ثلاثة فى الكتاب كله .

ومما حرَصت عليه فى هذه الطبعة ، ضبط الأعلام والنصوص القرآنية والحديثية ضبطا كاملا ، كما ضبطتُ مواضع اللَّبْس والاشتباه فى أكثر كلمات الكتاب ، حتى يسْهُل على القارئ معرفة الصواب من أوّل نظرة ، دون احتياج إلى مراجعته فى المظانّ اللغوية أو التاريخية أو غيرها .

وإنى إذ أقدّم هذا البحث بهذا التَّصدير الموجز ، أشعر بأنى أقدّم للعالم العربىّ أثرا نفيسا جدا ، من آثار أستاذ عالم فاضل محقِّق شاب ، أنجبته العراق ، وشاركت مصرنا العزيزة فى تثقيفه وتخريجه ، على أحدث المناهج العلمية وأدقها ، وأرجو أن يُكتب بذلك فى الخالدين ؟

٢٧ / ٧ / ١٣٧٧هـ .
١٦ / ٢ / ١٩٥٨م .

مصطفى السقا
بجامعة الملك سعود
بمدينة الرياض

مقدمة المؤلف

كنت قد قدّمت إلى مجلس كلية الآداب بجامعة القاهرة، رسالة عن الخليل بن أحمد الفراهيدىّ ، ومذهبه فى الدراسة اللُّغوية والنحوية . وكان لابدّ لى — وأنا أدرس الخليل — أن أعرض للشُّيوخ الذين أخذ عنهم ، والتلاميذ الذين لازموه ، وأخذوا عنه ، وكنت قد رأيت أن من تلاميذه علَمين من أعلام الدراسة اللُّغوية والنحوية ، هما سيبويه ، الذى انتهيت إلى أنه رأس المدرسة البصرية ، والكسائىّ الذى رأيت أنه رأس المدرسة الكوفية .

وكنت قد قصرت بحثى فى دراسة الخليل على أعمال سيبويه ، وكتابه ، لأن كتابه — فيما رأيت — فى مقدمة المصادر التى يرجع إليها دارس أعمال الخليل ، فقد سجّل سيبويه فى كتابه أقوالا للخليل ، عددتها — بحقّ — أصول الكتاب وقواعده التى انبنى عليها .

وفى الفترة التى كان سيبويه يرسم حدود مدرسة كان لها أنصار وتلاميذ ، كان علىّ بن حمزة الكسائىّ يرسم حدود مدرسة أُخرى، كان لها أنصار وتلاميذ أيضا . وليس غريبا أن تسلك كلّ مدرسة منهما سبيلا بعينها ، فقد كان لثقافة الرئيسين ، أثر فى تباعُد السَّبيلين ، وتبايُن المنهجين .

وكنت فى أثناء دراستى للخليل ، أضيق أحيانا بما سلَكه البصريون الذين جاءوا بعده ، ممن لم يُتَح لهم ما أُتيح للخليل ، من وَفرة فى المصادر ، ومن فكر مُبْدع ناقد ، ومن حسّ دقيق بالعربية ، وراحوا يدرسون النَّحو فى غير منهجه ، ويدعِّمون أصوله بأصول المَنطق ، وقواعد العقل ، فذهبوا ببريقه ، وعصَفوا برُوْحه ، وتناوَلوه على أنه صناعة لفظية ، تقوم على البراعة فى تصريف الألفاظ ، واختراع القوالب ، حتى عاث فيه الجمود ، وأصيب بالجَدْب المخيف .

ولكن موضوع الدّرس إذ ذاك كان قد حدّ من خُطواتى ، فلم أستطع متابعة الدّرس بأطرافه ، فقد كان من أعمال علىّ بن حمزة الكسائىّ ، وأعمال تلاميذه ما يَلْفت النظر إلى هذه المدرسة النّامية ، التى وقفت موقف المنافس القوىّ للمدرسة البصرية ، ويُهيب بالدارس إلى درس أعمق مما انتهى إليه القُدماء وأتباع القدماء من المحدّثين . . . فلا غِنى للدّارس أن يقف على أسس المنهجين ، ليستخلص منهما جميعا أُسُسا صالحة لبناء جديد ، يقوم على الإصلاح الشامل لمنهجه ، والتجديد الناقد لأصوله ، ولا غِنى لداعٍ إلى إصلاح أو تجديد ، عن أن يلمّ بالمذهبين معا ، ويقف على خصائص المدرستين جميعا ، دون التقيّد بما قيل عن هذا المذهب أو ذاك ، ودون التأثّر بعاطفة تدعو إلى تقريب هذا ، واستبعاد ذاك .

فقد كنت — وأنا أدرس الخليل — ألمح فى آراء الكوفيين منافذ يُطِلّ منها الدارس على فِقه العربية ، وحسّ بطبيعتها ، وأحسست أن منهجهم فى هذه الدراسة ، يصلح أن يكون قاعدة لبناء جديد ، فأقبلت فى هذه الرسالة على الاستزادة مما كنت ألمح ، ولم أتقيّد بما قاله الخصوم والمؤيّدون ، ولم أبدأ دراستهم كما بدأ القدماء ، فرجعت إلى الوراء أتتبّع تاريخ هذه المدرسة النامية ، فإن بدا أنى اتّفقت مع القدماء فى ما وصلوا إليه ، فقد خالفتهم فى كثير منه ، وخالفت كثيرا من المحدّثين الذين آمنوا بالقدماء ، ولم يبذلوا فى سبيل البحث مجهودا ذا غَناء ، واضطررت من أجل الإلمام بهذه المدرسة ، التى عاصَرت المدرسة البصرية فى أقوى مراحلها التطوّرية ، أن أدرُس النحو من أوّله ، وأتتبّع — ما أمكن — خطوات الدرس اللّغوى ، لأصل معه فى تطوّره ، إلى ماوصل إليه عند نشأة هذه المدرسة ، وهذا هو الذى دعانى إلى أن أمهّد للبحث بهذا التمهيد ، الذى صدرت به الرسالة ، والذى رأيت أنه ضرورة لامفرّ لى منها .

ورأيت — كما رأى القدماء — أن النّحو فى أوّل نشأته بصرىّ ، تعاون على إنمائه دارسون بصريون ، حتى انتهى إلى الخليل ، فحمل العبء أكثره ، وهيّأت له ثقافته الواسعة ، وعقليّته النافذة ، أن يكون رأس مدرستين ، تتمّم إحداهما الأخرى ،

لهذا رأيت — كما سوف يتبين للقارئ — أن أعقد فصلا أتناول فيه بإيجاز مصادر الدراسة البصرية ، والمنهج الذى انتهجه البصريون فيها ، ليَسْهُل على الدّارس أن يُوازن بين المنهجين ، ويقارن بين الدراستين .

وقد وجدت من إرشاد أستاذى الجليل ، الأستاذ « مصطفى السقا » وتوجيهه، ما أعانى على بلوغ كثير مما كنت أهْدِف إليه ، فإليه أتوجه بالشكر والتقدير ؟

المؤلف

تمهيد

١ ـ الكوفة

لم تكن الكوفة معروفة بهذا الاسم قبل تمصيرها ، فلم يسكنها العرب ولا غيرهم ، وإنما كان موضعها جزءا من الضفة الغربية للفُرات الأوسط ، إلى الشرق من مدينة الحيرة ، وفى هذا السهل الخصيب المحصور بين الفرات شرقا ، والبادية الواسعة المطلّة على مَشارف الشام وعمّان غربا . وكان موضعها ثغرا من ثغور البادية Caravan City ومحلا لتبادل البضائع بين الفُرس من جهة ، وأصحاب الإبل البدو من جهة أخرى ، وللإتصال بين الجماعات العربيّة المُنتشرة فى البادية ، وأهل القُرَى من الآراميين الذين سكنوا هذه المنطقة قديما .

وقد انتشرت فى هذا السَّهل ، قريبا من هذا الموضع ، ديارات ودساكر صغيرة ، منها كويفة بن عمرو ، وهو رجل من الأزد ، كان كسرى أبرويز « لما انهزم من بَهرام جُور ، نزل به فقراه ابن عمرو ، فلما رجع أبرويز إلى مُلكه ، أقطعه ذلك الموضع »[1] ، وكويفة ابن عمرو هذه هى التى مرّ عليها سعد بن أبى وقاص ، حين كان يرتاد موضعا لجنده ، بعد ما كان المسلمون معه قد استوبئوا المدائن واستوخموها[2] .

وكان هناك عناصر سامية من السُّريان شيّدوا ديارات لهم فى هذه البقعة ، وعُرفت عندهم بالعاقولا « ياكيولو » وهو الاسم السُّريانى للكوفة ، كما يزعم ماسنّيون[3] .

---

(١) لسان العرب : مادة كوف .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٢٧٦ طبعة مصر .

(٣) ماسنيون : خطط الكوفة .

أما اسم الكوفة فأطلق عليها حين تمصيرها . واختلف المؤرّخون فى أصل هذه التسمية ، فقال البكرىّ : « إنما سميت الكوفة لأن سعداً لما افتتح القادسيّة ، نزل المسلمون الأنبار ، فآذاهم البقّ ، فخرج وارتاد لهم موضع الكوفة ، وقال : تكوّفوا أى اجتمعوا ، والتكوّف : التجمّع [١] . وذكر ياقوت وغيره أقوالا كثيرة ، أوجهها فيما أرى ، أنها « سميت كوفة بموضعها من الأرض ، وذلك أن كل رملة تخالطها حصباء تسمى كوفة » [٢] .

والذى يقصد إليها من النّجَف ، وهى إلى الغرب منها على بضعة أميال تقريبا ، لايجد فى طريقه إليها إلا هذه الرمال الحُمْر التى تخالطها الحصباء ، وأكبر الظنّ أن العرب الذين ارتادوها ووصلوا إلى موضعها من جهة الشمال ، كانوا قد رأوا هذه الرمال فى طريقهم ، فسمّوْها باسمها ، وكان العرب يسمون « الرملة الحمراء » كُوفة ، وقد جاء فى القاموس المحيط : « الكوفة بالضمّ : الرملة الحمراء المُستديرة ، أو كل رملة تخالطها حصباء » .

وقد نمت الكوفة بعد تمصيرها سريعا ، حتى كانت فى مطلع القرن الرابع حاضرة عراقية كبيرة ، تتبعها فى الإدارة بابل وعين التمر (شثاثة) وغيرهما [٣] ، ثم تقلّص ظلّها فى العهد التركىّ العثمانى ، فأصبحت « ناحية » صغيرة ، تتبع فى إدارتها « قضاء » النّجف ، وظلّت كذلك فى الإدارة العراقية ، بعد استقرار الحكم الوطنى فى العراق .

وهى الآن فى نفس الموضع القديم الذى مُصِّرَت فيه ، وإن لم تشغل غير جزء منه ، ولا يزيد سكانها الآن على عشرة آلاف نسمة ، ارتحل إليها معظمهم من النّجَف ، وأكثر ما يعتمد عليه أهلها الآن التجارة ، لأنها منفذ النّجَف إلى مُدن الفُرات الأوسط ، ومَصْرِف تجارتها وأعمالها .

---

(١) البكرى : معجم ما استعجم طبعة القاهرة ، ص ١١٤٢ .

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ٧ ص ٢٩٥ .

(٣) ماسنيون : خطط الكوفة .

موقعها

وتمّ تخطيط الكوفة على يد سعد بن أبي وقّاص بعد تخطيط البصرة بسنتين أو ثلاث ، وكان قد نزل بها المسلمون في السنة السادسة عَشْرة للهجرة [١] ، أو في السنة السابعة عَشرة [٢] ، وقد خُطّت في وادي الفُرات الأوسط الخصيب ، حيث يكْثُر النّخيل ، ويزدحم على جانبَيه ، ويمتدّ إلى مسافات بعيدة بحذاء النهر .

وكان العرب يسمّون العراق بلاد السّواد ، لأن المُقبل عليه من الغرب كان يرى من بعيد سوادا كثيفا ، لا يصل إليه حتى يعلم أن ما كان يراه إن هو إلا هذه الصفوف المتراصّة من النّخيل ، قامت على ضفّتَي الفرات .

والكوفة تُشرف على سهل واسع ، فيه العُشب ، وفيه الأزهار والرّياحين ، يُساعد على نموّها أرض خِصْبة ، وأمطار غزيرة ، وجداول كثيرة ، تأتي بالماء من النهر إلى حيث الدساكر والديارات المبثوثة هنا وهناك ، في تلك البقعة الواسعة ، فإذا جاء الرّبيع بدت الأرض منقوشة بكل لون جميل .

وكان خصب الأرض ، ووفرة المياه ، وتعهّد السماء إياها بالأمطار ، مما شجّع الرُّهبان أن يبنوا دياراتهم فيها ، فلم تكن الديارات تُبنى إلا حيث يتوافر الماء ، ويكْثُر النبات .

وهذه الديارات الكثيرة ، المبثوثة هنا وهناك ، قد نظّمت حولها الحدائق ، ونُسّقَت جوانبها بالرّياض ، وزُيّنَت بالشّقائق والرّياحين ، ليُساعد جمال المكان على صفاء النّفس ، ورقة الحسّ ، وسُموّ الخيال .

وبظاهر الكوفة منازل النُّعمان بن المُنذر ، والحيرة ، والنّجَف ، والخَوَرْنق ، والسّدير ، والغَرِيّان ، وما هناك من المتنزّهات والديارات الكثيرة [٣] .

---

(١) ابن الأثير (ج ٢ ص ٢٥٩) .

(٢) تاريخ الطبري (حوادث سنة ١٧ هـ ص ٢٤٨٥ طبعة أوربة ، والبلاذري فتوح البلدان ص ٣٨٤).

(٣) معجم البلدان (ج ٧ ص ٢٩٩) .

ومن هذه الديارات : دير هند ، الذى يقول فيه مَعْن بن زائدة الشَّيبانى :

ألا لَيْتَ شِعْرِى هل أبِيتَنَّ ليلةً لدَى دَيْرِ هِنْدٍ والحَبِيبُ قَرِيبُ
فنَقْضِيَ لُبَاناتٍ ونَلْقَى أحبَّةً ويُورِقُ غُصْنٌ للسُّرُور رَطِيبُ

ودَيْر الجماجم ، وهو دَير بظاهر الكوفة ، على طريق البرّ الذى يُسْلك إلى البصرة ، وفيه كانت الوقعة بين الحجَّاج بن يوسف الثَّقفىّ ، وعبد الرحمن بن الأشعث

ودَير اللُّجّ ، الذى يقول فيه الشاعر :

سَقَى اللهُ دَيْرَ اللُّجِّ غَيْثًا فإنَّهُ على بُعْدِهِ دَيْرٌ إلىَّ حَبِيبُ
قَرِيبٌ إلى قَلْبِى ، بَعِيدٌ مَحَلُّهُ وكَمْ من بَعِيدِ الدَّارِ وهْو قَرِيبُ

وديارات أُخرَى كثيرة ، لامجال هنا لتفصيل الكلام فيها [1] .

وقد استَرْعى جمال البُقعة أنظار العرب المُهاجرين إليها ، فكان محمد بن عُمَير ابن عُطارد يقول : « هى مَرِيئة مَرِيعة ، بريَّة بحَرْيَة ، إذا أتتنا الشمال هبَّت فى مسيرة شهر ، على مثل رَضْراض الكافور ، وإذا هبَّت الجنوب جاءتنا بريح السَّواد وورده وياسَمينه ، وخيرِيِّه ، وأُتْرُجِّه ، ماؤنا عذْب ، ومُحْتَشُّنا خِصْب » .

وكان الأحنف بن قيس يقول فى مَعْرِض المُوازنة بين منزل أهل الكوفة وأهل البصرة :

« نزلَ أهلُ الكوفة فى منازِل كِسْرَى بن هُرْمُز ، بين الجِنان المُلتفَّة ، والمياه الغزيرة ، والأنهار المطَّردة ، تأتيهم ثمارهم غضَّة ، لم تُخْضَد ولم تفسد » ، ونزلنا أرضًا هشَّاشة ، فى طَرَف فلاة ، وطَرَف مِلحٌ أُجاج ، فى سَبِخة نَشَّاشة ، لا يجفُّ ثراها ، ولا ينبُت مرْعاها ، يأتينا ما يأتينا فى مثل مرِيء « النَّعامة » [2] .

على هذه الأرض وقع الاختيار ، حين اعتزم سعدُ بن أبى وقاص أن يرتاد لأصحابه وجنده منزلا ، لأنها تجمع بين طبيعة الحضَر ، وطبيعة البدو ، وتصلح أن تكون مُتَحوِّلًا من الحياة البدوية الخالصة ، إلى الحياة المدنية الناعمة ، ولأنه لايفصلها عن قاعدة الخلافة فاصل طبيعىّ ، كما كان هذا مُلاحظا فى تمصيرهم الأمصار .

(١) البكرى : معجم ما استعجم (من ص ٥٧٠ — ٦٠٧ طبعة القاهرة) .
(٢) لابن الفقيه : (البلدان ص ١٦٣ فما بعدها « طبعة أوربة ») .

الهجرة إليها

بعث أبو بكر الصّدّيق بحَمْلتين ، لمناوشة الفُرس فى العراق ، حَمْلة لمناوشتهم فى الجنوب ، وأخرى لمناوشتهم فى الوَسَط ، وكانت هاتان الحَملتان مبدأ الهجرة الإسلامية الأولى إلى العراق . وكان على رأس الحملة الثانية : المُثَنّى بن حارِثة الشَّيْبانى ، وشَيْبان : قبيلة رَبَعية عَدْنانية ، « تلتقى مع النبىّ صلى الله عليه وسلم فى نِزار » . « وفى هذه القبيلة هِمّة وإباء وحَمِيَّة ، كان منها المثنى بن حارِثة ، الذى تولى قيادة الجيوش الإسلامية عند غزو العراق فى عهد أبى بكر الصّدّيق رضى الله عنه ، وهو الذى حسن خليفة رسول الله ذلك ، وتولى بهمّته أُولى الحَمَلات ، فشهد له الصّدّيق فى ذلك بأحسن البلاء . ولقد اشتهرَت شَيْبان بالهمّة والصّبر وحُسن البلاء ، فى الجاهلية والإسلام ، حتى كانت أبرز القبائل الرَّبَعية وفخرها »[1] ، وحتى قيل فيها : « إذا كنتَ فى ربيعة فكاثِرْ بشَيْبان ، وفاخر بشَيْبان ، وحارب بشَيْبان »[2] .

ثم كانت الهجرة الثانية ، يوم نادَى عمر بن الخطّاب بالنَّفير ، بعد مَقتل أبى عُبيد الثَّقفىّ ، وقد استَجاب لندائه جمعٌ كبير ، واستَشار فيمن يوليه عليهم ، فأشير عليه بسعد بن أبى وقّاص ، أحد الستة الذين رشّحهم عمر للخلافة فيما بعد .

وكان أبو بكر قد استعمل سعد بن أبى وقّاص على صَدقات هوازن ، وأقرّه عمر عليها[3] ، فولاه عمر ، وجهّز تحت إمرَته الجيوش ، وكانت عدتهم قُرابة تسعةَ عشَر ألفا ، فإذا بالعرب جميعا ، من كان يُحارب الفُرس تحت إمرة المُثَنّى ، ومن جاء منهم تحت إمرة سعد — وهم يقفون معسكرين أمام الفرس — بضعة وثلاثون ألفا . وأخذ هذا الجيش يكتسح أمامه الجيوش الفارسيّة ، ويعصف

---

(١) أبو زهرة : (ابن حنبل ص ١٣) .

(٢) تاريخ بغداد (ج ٤ ص ٤١٥) .

(٣) تاريخ الطبرى (حوادث سنة ١٤ هـ ص ٢٢٢١ طبعة أوربة) .

بتحصيناتها ، وإذا به ينتصر عليها فى القادسيَّة ، ويتعقَّبها إلى المدائن ، ثم يستولى عليها ، ويستمر فى تعقُّبها ، حتى وقعت معركة جَلُولاء ، فانتصر العرب انتصارا مبينا . وكانت هذه المعركة هى الفاصلة . صارت الإمبراطورية الفارسية بعدها جدثا من أحداث التاريخ ، وخبرا من أخباره .

بقى العرب منتشرين فى هذه البقاع التى احتلُّوها ، والمُدن التى دخلوها عَنْوة ، حتى جاءهم الأمر من المدينة بتمصير مدينة برّية بحريَّة ، لاتفصلها عن العاصمة الإسلامية فواصل طبيعية ، فمصَّرُوا حينئذ الكوفة ، وخطَّطوا المسجد الجامع ، ومساجد الأحياء ، وعلموا على المناهج والسكك .

ولم ينسحب العرب جميعا من مراكزهم إلى الكوفة ، ولم يكن الانتقال إليها أمرا حتما ، بل كان اختياريا ، ينتقل إليها من يشاء ، ويبقى حيث هو من يشاء .

وانتقل سعد بمن أراد الانتقال إلى الكوفة ، وخلف وراءه كثيرا من العرب ، وأغلبهم من بنى عبس ، وكتب إلى عمر كتابا قال فيه : « إنى نزلتُ بكوفة منزلا بين الحيرة والفُرات ، برّيا بحريا ، ينبت الحِلِىّ والنَّصِىّ[1] ، وخيَّرْت المسلمين بالمدائن ، فمن أعجبه المقام فيها تركته فيها كالمَسْلحة ، فبقى أقوام من الأفناء ، وأكثرهم بنوعبس »[2] .

أخذ سعد يأمر القبائل المتنقِّلة إلى الكوفة أن تحتلّ الخطط التى أُعِدَّتْ لها ، وحطَّت القبائل رِحالها فى هذا المصر الجديد ، وكان أكثر الذين انتقلوا إليها من عرب الجنوب ، كانوا يعدّون عشرين ألفا ، اثنا عشر ألفا منهم من اليمانيين .

---

(١) الحلى على فعيل : يبيس الغضى ، والنصى : ضرب من الطريفة ، يقال له نصى مادام رطبا ، فإذا ابيض فهو الطريفة ، فإذا ضخم ويبس فهو الحلى ، وهو من خير مراتع أهل البادية للنعم والخيل ، وقد جمع الحلى والنصى فى قول الراجز :

نحنُ مَنَعْنا مَنْبِتَ النَّصِى ومَنْبِتَ الضُّمْرَانِ والْحَلِىّ

لسان العرب : مادة الحلى

(٢) تاريخ الطبرى (ص ٢٤٧٦ طبعة أوربة) .

وثمانية آلاف من المُضَريِّين . كما تنصّ عليه رواية الشعبيّ ؛ فقد كان يقول : كنا نعُدّ — أهل اليمن — اثنى عشر ألْفا ، وكانت نِزار ثمانية آلاف [١] .

هؤلاء هم السكّان العرب الذين سبقوا إلى القرار فى هذه المدينة الجديدة .

وما إن دبّت الحياة فى المِصر الجديدة حتى توافد الناس عليه من كل صَوْب ؛ فأخذ المجتمع فيه يتعقّد شيئا فشيئا ، حتى أصبح من الأمصار الإسلامية التى قامت بنصيبها العظيم فى خدمة الإسلام والحضارة .

وكان إلى جانب المجموعة العربية فى هذا المصر ، مجموعات أخرى احتاج إليها مجتمع الكوفة ، أو احتاجت هى إلى الاستقرار والعمل فيه . فالعرب الأوّلون الذين سكنوا الكوفة ، وكانوا هم الأداة العسكرية التى تمّت بها الانتصارات — يتألّف منهم عنصر الأشراف . ومنه طبقة زعماء القبائل ، وطبقة رؤساء الجيش ، وأصحاب الألْوِية ، ومنه طبقة الجند .

أما نواحى الحياة الأخرى التى يَحْتاج إليها هذا المجتمع ، فأغلب الظنّ أنه كان يقوم بها عناصر أجنبية من العناصر المغلوبة ، والعناصر التى هاجرَت إلى هذا المِصر الجديد ، لتقوم بقسطها فى إنعاش الحياة الاقتصادية . وكان قِوام هذه المجموعات الأجنبية :

١ — عناصر فارسيَّة . . . وهى المجموعة الكُبرَى بين هذه المجموعات ، وكان كثير منها يعيش فى هذه المنطقة وما جاورها قبل تمصير الكوفة . وكان يشتغل فى الزراعة واستغلال الأراضى الصَّالحة لها ، فلما تمّ الفتح على أيدى المسلمين ، ومُصِّرَت الكوفة ، وفَدت جماعات أخرى ، ومنها أربعة آلاف ممن كانوا يعملون فى الجيش الفارسىّ . وقد شَهدوا القادسيَّة مع رُستم ، ورأوْا ما آل إليه أمْر الإمبراطورية الفارسيَّة بعد انهزام جيوشها ، ومقتل قائدها رستم . فأرادوا الدخول فى الإسلام يحيون حياة المسلمين ، ويذودون عن الإسلام . وقد فاوضوا سعدًا فى ذلك ، واستأمنوه على أن ينزلوا حيث أحبوا ، ويحالفوا من أحبوا . ويفرض لهم

---

(١) معجم البلدان (جـ ٧ ص ١٩٦) ، وفتوح البلدان للبلاذرى (ص ٢٧٥ طبعة مصر) .

فى العطاء ، فأعطوا الذى سألوا ، وحالفوا زُهْرة بن حَوِيَّةَ السَّعدىّ من بنى تميم . وأنزلهم سعد بحيث اختاروا ، وفرَض لهم فى ألف ألف ، وكان لهم نقيب يُقال له دَيلم . فقيل : حمراءُ ديلم [١] . ثم أخذ عددهم يزداد ويكثر ، حتى قيل : إن جيش المختار بن أبى عبيد كان لايقلّ عن عشرين ألفا . معظمهم من أبناء الفرس الذين كانوا يسمون الحمراء [٢] .

٢ — وعناصر من السُّرْيان . . . وهم الذين كانوا يسكنون فى الجزيرة . وفى الدّيارات المُنبثّة فيها ، وفى الدّيارات التى كانت قائمة فى أطراف النَّجف والحيرة ، ممن أصبحت لهم صلات بالمجتمع الكوفى ، وقد كان فى الكوفة — كما يقول ماسّنيون — أسقفان : أحدهما نسطورى ، والآخر يعقوبىّ ، لأن نصارَى الكوفة كانوا طائفتين : نساطرة ، وهم الحَضَر ، ويعاقبة وهم البَدْو . وقد أقام هؤلاء فى الكوفة ، فدخل منهم من دخل فى الإسلام . وبقى منهم من بقى فى ذمّته . فحفظ الإسلام دماءهم وأموالهم وحرّياتهم .

٣ — وعناصر من النَّبَط . . . كانوا قد سكنوا فى هذه المنطقة . وعرَفوها قديما . وقد اختلف الباحثون فى الأصل الذى انحدر منه النَّبَط . فمن قائل إنهم آراميُّون . وحجّتهم فى هذا أنهم كانوا يتكلّمون الآراميّة . ومن قائل : إنهم عرب كانوا يستخدمون الآرامية لغة كتابة [٣] .

ومهما يكن من أمر ، فإن وادىَ الرافدين كان قد شهد كثيرا منهم . انتشروا فى هذه البقعة الواسعة الممتدّة من منطقة الكوفة إلى البطائح (فى جنوب العراق) ، والمِنْطقة التى مُصِّرَت فيها واسط .

يؤيد هذا ما كان أبو عمر بن العلاء يقوله لأهل الكوفة : «لكم حَذْلَقة النَّبَط وصَلَفهم ، ولنا دهاء الفُرس وأحلامهم» [٤] .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان (ص ٢٧٧ طبعة مصر) .
(٢) أبو حنيفة الدينورى : الأخبار الطوال (ص ٣١٠ طبعة أوربة ص ٢٥٤ طبعة مصر) .
(٣) الدكتور على عبد الواحد وافى : (فقه اللغة ص ٦٣) .
(٤) الجاحظ : البيان والتبيين (ج ٢ ص ١٠٦) .

وما كان يُرْمى به الحجّاج من حُمق إذ بنى مدينة واسط فى بادية النَّبَط ، ثم منعهم من دخولها ؛ فلما مات دلَفوا إليها من قريب [١] .

وما جاء فى القاموس المحيط : من أن النَّبَط : « جيل ينزلون بالبطائح بين العراقين كالنَّبيط والأنباط » . [٢]

ولا يزال بعضهم يعيش فى أماكن متفرّقة من الهَوْر الواسع ، الذى يُغطى جزءًا كبيرا من اليابسة فى جنوب العراق ، عند مُلتقى دجلة بالفُرات . ويعرفهم العراقيُّون بالصُّبَّاء ، وهم الصَّابئة ، من نصارَى يوحنا المَعْمدان [٣] .

وليس نَبَط العراق هؤلاء من أولئك الذين أقاموا لهم دولة امتدّت رُقعتها من شبه جزيرة طور سيناء إلى بادية الشام وأطراف الفُرات . لأن هؤلاء ينتمون إلى أصل عربىّ ، كما مال إليه كثير من الباحثين [٤] ، أو خليط من الآراميين والعرب [٥] مستندين فى ذلك إلى أن لغتهم — كما تدل عليه النقوش النَّبَطية — تشتمل على ألفاظ عربية كثيرة [٦] .

٤ — وعناصر أخرى يهودية ونصرانية ، وفَدوا على الكوفة بعد تمصيرها من نَجْران (اليمن) ، وأقاموا فى الكوفة فى محلة نُسبت إليهم ، وهى النَّجرانية [٧] .

* * *

كان كثير من هؤلاء الأجانب صيارفة . وكانت المصارفة من بين الأعمال التى كان يقوم بها اليهود والنَّصارى الذين هاجرُوا إلى الكوفة ، وشاركهم المسلمون أخيرا ، حتى إن البلاذرى تحدّث عن هذا ، فرَوَى أن حوانيت الصَّيارفة ، كانت فى مسجد بنى جذيمة [٨] .

---

(١) الجاحظ : البيان والتبيين (جـ ٣ ص ٣١٨) .
(٢) القاموس المحيط ، مادة : نبط .
(٣) دائرة المعارف الإسلامية ، مادة : بطيحة .
(٤) الدكتور وافى : فقه اللغة ص ٦٣ .
(٥) إسرائيل ولفنسون : تاريخ اللغات السامية ص ١٣٤ .
(٦) تاريخ اللغات السامية ص ١٣٤ ، وتاريخ الأدب السريانى ص ٨ .
(٧) فتوح البلدان للبلاذرى (ص ٦٦ طبعة أوربة) .
(٨) فتوح البلدان للبلاذرى (ص ٢٨٥ طبعة أوربة) .

غير أن « ماسنيون » خلط بين المصارفة والتعامل بالربا . فقال : « حقًّا كان صيارفة اللَّخْميين قديما أساقفة الحيرة . ولكن بعده نرى ظهور بعض الصيارفة من المسلمين ، بالرغم من النهى الشرعى »[١] .

المصارفة تختلف عن تعاطى الرّبا ، كاختلاف البيع عنه . لأن الصرف حلال . والربا حرام . والمُصارفة والصَّرف نوع من البيوع ، إلا أن الفقهاء اشترطوا فيه شروطا ، وشروطه التى ذكروها أربعة :

(١) أن يكون قبض البدلين قبل الافتراق بالأبدان .

(٢) أن يكون باتًّا لاخيار فيه .

(٣) ألا يكون بدل الصَّرف مؤجَّلا .

(٤) التَّساوى فى الوزن إن كان المعقود عليه من جنس واحد . فإن تبايعا ذهبا بذهب ، أو فضة بفضة مجازفة ، لم يجز[٢] .

وذكر الخوارَزمىّ أن مما تفرّد به مالك بن أنس ، إجازته أن يتعامل الصَّيارفة ، ويتبايعوا الوَرِق بالوَرِق ، والعين بالعين ، بزيادة ونقصان ، وإن كان ذلك محظورا على غيرهم[٣] .

وعليه فان الصَّرف جائز شرعا ، وهو من المعاملات المُباحة المحللة كالبيع ، إلا أنه بيع بعض الأثمان ببعض كالذهب والفضة إذا بيع أحدهما بالآخر . أو بيع ما هو من جنس الأثمان كبيع بعض المصوغات ببعض[٤] .

وكان النَّصارَى واليهود يستحلُّون تعاطى الرّبا ، فيخلطون المُصارفة به . لذلك « كره مالك أن يكون النَّصارى فى أسواق المسلمين . لعملهم بالربا واستحلالهم له »[٥] .

وما ذكره ماسنيون : من أن النبىّ صلى الله عليه وسلم أجاز لبنى ثقيف خاصَّة

---

(١) ماسنيون خطط الكوفة ص ٢٤ صيدا .

(٢) شرح البحر الرائق لابن نجيم (جـ ٦ ص ٢٩٩) .

(٣) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص ٨ .

(٤) شرح البحر الرائق على كنز الدقائق (جـ ٦ ص ٢٠٨) .

(٥) المدونة الكبرى (جـ ٨ ص ١١١) .

أن يتعاطَوُا الربا [١] ، فهو ما لانستسيغه . لأنه مخالف للواقع . فليس فى حياة النبىّ وسيرته . وما عُرِف عنه من صَلابة فى تطبيق أحكام الدين ، ما يجعلنا نندفع وراء زعم ماسِّنيون . فليس من المعقول أن يمالىء النبىّ ثقيفا على حساب الدين ، بإجازته لهم أن يتعاملوا بالرِّبا ، مع ورود النُّصوص القاطعة من الكتاب والسنة فى تحريم الربا ، مما لايدع مجالا للشكّ فى أن مثل هذا الزعم إن هو إلا افتراء وافتئات .

* * *

هذا وقد أُقطعت القطائع بعضَ العرب ، كرؤساء القبائل والبارزين منهم . وذكرت كتب البُلدان كثيرا منها منسوبة إلى أصحابها . كالسوادية ، نسبة إلى سَوادِ ابن زيد بن عدىّ بن زيد الشاعر . وضيعة زُرارة بن يزيد بن عمرو من عامر بن صعصعة ، وهو صاحب شرطة سعد [٢] وغيرهما .

ويبدو أن بعض العرب استحلى حياة العمل ، فشارك الطبقات العاملة فى أعمالهم ، فكان عمرو بن سعد بن أبى وقّاص يستغلّ حماما يُنْسَب إليه . كما كان مولاه أعين يستغلّ حماما آخر .

وكان لعرزم من بنى نهد ، جبّانة يُضْرَب فيها اللَّبِن « ولَبِنُها رديء ، فيه قصب ، فربما وقع الحريق بها ، فاحترقت الحيطان » ، حتى إن بعضهم أوصى ألا يُجْعَل فى قبره لَبِن عَرْزَمىّ [٣] .

ومهما يكن من شيء ، فإن هذا المصر الجديد قد وُجد فيه من الأعمال ما يُحتاج إليه . ووُجِد فيه من أصحاب الأعمال صيارفة ، وصاغة ، ووَرّاقون — وهم ناسخو الكتب — وتمّارون يبيعون التمر ، ومنهم مِيثَم التمار صاحب علىّ بن أبى طالب ، وسوّاقون يبيعون السَّويق ، وقصّارون ، وهم محوّرو الثياب ، ورسامون . وذكر ماسِّنيون أن من بينهم صينيِّين كانا يقطنان فى العاقول ، وهو الاسم السُّريانى للكوفة ،

---

(١) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٤ ، صيدا .

(٢) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢١ ، صيدا .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ٢٧٤ — ٢٩٧ ، القاهرة .

بين سنة ٧٥١ ، ٧٦٢ للميلاد ، وهما : فان — شن . وليو — تسه [١] ، إلى غير ذلك من الحِرَف والأعمال التى يحتاج إليها مصر ضمّ مجتمعا كبيرا كالكوفة .

بين الكوفة والبصرة

كان تمصير الكوفة بعد تمصير البصرة بعام أو بعامين ، ومع ذلك فإن الكوفة كانت قِبْلة أنظار العرب وزعمائهم وقادتهم . فى الكوفة نزلت البيوتات العربية الأربعة : آل زُرارة الدّارميون ، وآل زَيد الفَزاريون ، وآل ذى الجَدَّين الشَّيْبانيون ، وآل قيس الزبَيْديون [٢] .

وفى الكوفة هبط سبعون رجلا من صحابة الرسول ، ممن شَهدوا بدرًا ، وثلاث مئة من أصحاب الشجرة [٣] . وكان أبو العباس يقول — بعد أن استمع إلى ابن عياش الكوفىّ وأبى بكر الهُذَلىّ البصرىّ فى مناظرة طويلة — : « الكوفة بلاد الأدب ، ووجه العراق ، وهى غاية الطالب ، ومنزل خِيار الصَّحابة ، وأهل الشَّرف » [٤] .

وفى مقدّمة من نزَلها من الصَّحابة عمّار بن ياسر وعبد الله بن مسعود ، وقد بعث بهما عمر ، ليكون الأوّل أميرا ، والثانى مؤذنا ووزيرا ، وكان يقول لأهل الكوفة فى تعريفهم بهما : « هما من النُّجباء ، من أهل بدر ، فخذوا عنهما ، واقتدوا بهما ، وقد آثرتكم بعبد الله بن مسعود على نفسى » [٥] .

أما من نزَل البصرة من الصَّحابة ، فأنس بن مالك ، وعُتْبة بن غَزْوان ، وقد نزَل عتبة الكوفة أوّلا ، مع سعد بن أبى وقّاص ، ثم وُجِّه به بأمر عمر إلى البصرة ، على رأس بضع مئات من الجنود ، لحماية الثغور الإسلامية فى منطقة البصرة .

لعلّ السبب فى أن كانت الكوفة متجّه الأنظار ، هو أن القيادة العامة لجيوش

---

(١) ماسنيون : خطط الكوفة ص ٢٦ ، صيدا .
(٢) ابن الفقيه : البلدان ص ١٧١ ، ليدن .
(٣) كتاب الطبقات الكبير ج ٦ ص ٤ ، ليدن .
(٤) البلدان ص ١٧٢ ، ليدن .
(٥) البلدان ص ١٦٤ ، ليدن .